

﴿وَلَا تُخْزِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۝٨٧ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا
مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ [الشعراء: 87 - 89]

✽ مُنَاسَبَةُ الْآيَاتِ لِمَا قَبْلَهَا:

بعد دعوات إبراهيم الخليل المخلص إلى ربه، والتي كانت كلها مطالب إيجابية؛ أتجه بعد ذلك إلى مطالب سلبية مانعة، فقال ﴿وَلَا تُخْزِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾^(١)، فلما نبّه على أن المقصود الأسمى هو الآخرة؛ صرّح بالترهيد في الدنيا بتحقيق أجل ما فيها، وهو المال والولد، فقال: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾^(٢).

بعد دعوات
إبراهيم
الإيجابية؛ نبّه
على المقصود
الأسمى، وهو
النجاة في الآخرة

✽ شَرْحُ الْمُفْرَدَاتِ:

(1) ﴿تُخْزِي﴾: (خزي) أَصْلُ الْخِزْيِ ذُلٌّ يُسْتَحْي منه؛ ولذلك يُسْتَعْمَلُ فِي الذُّلِّ وَالِاسْتِحْيَاءِ⁽³⁾، وقيل: أَصْلُهُ: الْإِبْعَادُ، فَقَوْلُهُمْ: أَخْزَاهُ اللَّهُ، أَي: أَبْعَدَهُ وَمَقَّتَهُ⁽⁴⁾، وَالْخِزْيُ: الْفُضِيحَةُ، وَقَدْ خَزِيَ يَخْزِي خِزْيًا: إِذَا افْتَضَحَ، وَتَحَيَّرَ فَضِيحَةً⁽⁵⁾، وَالْخِزْيُ أَيْضًا: السُّوءُ⁽⁶⁾ وَالْهَوَانُ⁽⁷⁾، وَالْمَقْصُودُ بِالْخِزْيِ فِي الْآيَةِ: الْفُضِيحَةُ وَالذُّلُّ.

(2) ﴿يُبْعَثُونَ﴾: أَصْلُ (بعث) هو إثارة الشيء وتوجيهه⁽⁸⁾، وَالْبَعْثُ: الْإِحْيَاءُ مِنَ اللَّهِ لِلْمَوْتَى، وَبَعَثَ اللَّهُ الْخَلْقَ: نَشَرَهُمْ، وَالْبَعْثُ: الرَّسُولُ، وَبَعَثَهُ عَلَى الشَّيْءِ: حَمَلَهُ عَلَى فِعْلِهِ، وَبَعَثَ عَلَيْهِمُ الْبَلَاءَ: أَحْلَاهُ، وَانْبَعَثَ الشَّيْءُ، وَتَبَعَثَ: اْنْدَفَعَ، وَبَعَثَهُ مِنْ نَوْمِهِ: أَيْقَظَهُ،

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5370 / 10.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 371 / 5.

(3) الزبيدي، تاج العروس: (خزي).

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خزي).

(5) ابن منظور، لسان العرب: (خزي).

(6) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة: (خزي).

(7) الزبيدي، تاج العروس: (خزي).

(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بعث).

وَأَهْبَهُ⁽¹⁾، وقد غلبَ البَعَثُ في اصطلاحِ القرآنِ على إحضارِ النَّاسِ إلى الحِسابِ بَعْدَ الموتِ، وهو المرادُ به في الآية⁽²⁾.

(3) ﴿أَتَى﴾: أصلُ الإتيانِ: مجيءٌ بسهولة، ومنه قيلَ للسَّيْلِ المارِّ على وجهه: أَتَى وَأَتَاوِي، والإتيانُ قد يُقالُ للمجيءِ بالذَّاتِ، وبالأمرِ، والتَّديبِ، ويُقالُ في الخيرِ، وفي الشَّرِّ، وفي الأعيانِ، وفي الأعراضِ⁽³⁾، والإتيانُ إلى الله الإحضارُ في مكانِ قضائه، وتقول: أَتَيْتُ الأمرَ من مآتاتِهِ، أي: من وجهه الَّذي يؤتى منه⁽⁴⁾، وأمَّا المرادُ بالإتيانِ في الآية: فالمجيءُ والحضور.

(4) ﴿سَلِيمٌ﴾: أصلُ (سَلِمَ) يدلُّ على الصَّحَّةِ والعافية⁽⁵⁾، فَالسَّلَامُ والسَّلَامَةُ: التَّعَرِّيُّ من الآفاتِ الظَّاهرةِ والباطنةِ، وقوله تعالى: ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، أي: مُتَعَرِّضٌ مِنَ الدَّخْلِ، فهذا في الباطنِ، وقال تعالى: ﴿مُسَلَّمَةً لَا شَيْءَ فِيهَا﴾ [البقرة: 71]، فهذا في الظَّاهرِ، وقد سَلِمَ يَسْلَمُ سَلَامَةً، وَسَلَامًا، وَسَلَّمَهُ اللهُ⁽⁶⁾، والمرادُ بالسَّلِيمِ في الآية: الموصوفُ بقوةِ السَّلَامَةِ، أي: الخُلُوصُ من عقائدِ الشُّرِكِ⁽⁷⁾.

❁ الْمَعْنَى الإِجْمَالِيَّةُ:

يُكْمِلُ إِبْرَاهِيمُ ﷺ دَعَوَاتِهِ بِقَوْلِهِ: وَلَا تَفْضَحْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ تَبْعَثُ عِبَادَكَ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ، يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الْعَبْدَ فِيهِ مَالُهُ وَلَا أَبْنَاؤُهُ، إِلَّا مَنْ لَقِيَ اللَّهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَقَلْبُهُ خَالِصٌ مِنَ الشُّرِكِ وَالشَّكِّ، وَالْعَقَائِدِ الْبَاطِلَةِ، وَالْأَوْصَافِ الذَّمِيمَةِ وَالْإِرَادَاتِ الْفَاسِدَةِ⁽⁸⁾.

طلبُ إبراهيم
من ربِّهِ ألا
يفضحهُ يومَ
القيامةِ حيث
لا ينفَعُ مالٌ ولا
بنون

- (1) الخليل، العين، والأزهرِّي، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (بعث).
- (2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14 / 244.
- (3) الرَّاغِب، المفردات، والسَّمين، عمدة الحفاظ: (أَتَى)، والفيروزآبادي، بصائر ذوي التَّمييز: 2 / 43.
- (4) الجوهري، الصحاح: (أَتَى).
- (5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سَلِمَ).
- (6) الرَّاغِب، المفردات، والسَّمين، عمدة الحفاظ: (سَلِمَ).
- (7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19 / 150.
- (8) ابن جرير، جامع البيان: 17 / 595، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13 / 114، 115، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6 / 149.

❖ الإيضاح اللغوي والبلاغي:

معنى الواو في قوله: ﴿وَلَا تُخْزِنِي﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ عاطفة، والمعطوف عليه جملة: ﴿وَأَغْفِرُ لَأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِينَ﴾⁽¹⁾، والجامع بينهما: أَنَّ هداية الله لوالد إبراهيم يوم يُبعث الناس كافة سبب لعدم وقوع إبراهيم ﷺ في الهوان، أو أَنَّ يكون الجامع بينهما: أَنَّ الضمير في ﴿يُبْعَثُونَ﴾ عائدٌ على الصَّالِينَ، أي: إِنَّ الكلام فيهم، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾، فيكون عطفاً على (واغفر لأبي) ومن تتمته، فَإِنَّ المعنى: ولا تخزني يوم يُبعث الصَّالُونَ، والحال أَنَّ أبي منهم⁽²⁾.

دعاء إبراهيم
بالحداية لأبيه
لخوفه من
الخزي يوم
القيامة

غرض الطلب في قوله: ﴿وَلَا تُخْزِنِي﴾:

جاءت جملة: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ بطريقة الإنشاء، وقد خرج عن معناه الحقيقي إلى معنى مجازي، وهو الدُّعاء والابتهال من قبل إبراهيم الخليل متعطفاً وملتمساً من الله ألا يخزيه يوم الحساب، وكيف يُتصور أَنَّ يخزيه الله تعالى، وهو رسوله؟ والله يقول: ﴿إِنَّ الْحَزْنَ أَليَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾⁽³⁾ [النحل: 27]، أي: ما كان نصيب الكفار فقط، فكيف يخافه المعصوم؟ والجواب: أَنَّ هذا الدُّعاء من إبراهيم إنما هو لفرط إحساسه ﷺ بحق الله تعالى حتى يظن في نفسه القصور، ومعه الخزي، فَإِنَّ دقة الإحساس تجعله يستصغر حسناته في جنب الله تعالى العزيز الحكيم، وكلما قرب الإنسان من الله تعالى؛ أحس بقصوره، ولا يحس بعظمته ما فعل، ويحسب أَنه من المقصرين، لا من المقرِّبين الصادقين⁽³⁾، فكما أَنَّ حسنات الأبرار

نهى تعطف
والتماس يدل
على كمال الأدب
من الخليل ﷺ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5371 / 10.

(2) القنوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 264 / 14.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5371 / 10.

سَيِّئَاتُ الْمُقَرَّبِينَ، فكذا درجات الأبرارِ دركاتُ المقرَّبين⁽¹⁾، وهذا من كمال مقامه ﷺ وأدبه مع الله سبحانه.

عَلَّةُ التَّعْبِيرِ بـ ﴿وَلَا تُخْزِي﴾:

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ بلفظ الخزي، في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْزِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾، دون غيره من الألفاظِ كـ (الهوان أو الفضيحة أو الخذلان أو الذل)؛ لانتساع دلالة الخزي ومناسبته للسياق؛ إذ أصلُ الخزي ذُلٌّ يُسْتَحَى منه، وقيل: أصلُه الإبعاد، فقولهم: أخزاه الله، أي: أَبْعَدَهُ، وَمَقْتَهُ، وقولهم: خَزِيَ الرَّجُلُ: اسْتَحْيَا مِنْ قُبْحِ فِعْلِهِ، وذلك أَنَّهُ إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ، وَاسْتَحْيَا؛ تَبَاعَدَ، ونَأَى⁽²⁾، وقيل: أصلُه من قولهم: خَزِيَ الرَّجُلُ: لحقه انكسارٌ إمَّا من نفسه أو من غيره⁽³⁾، ومن معاني الخَزْيِ أيضًا: السُّوءُ، والهوانُ، والذُّلُّ، والفضيحةُ، والقهرُ، وقد يكون بمعنى: الهلاكِ والوقوعِ في بَلِيَّةٍ⁽⁴⁾، وهذه المعاني كلها تتناسبُ مع السياق الذي يظهرُ فيه أَنَّ المقصودَ بدعاء إبراهيمَ بعدم الخزي يوم القيامةِ لَا يلحقه أَيُّ انكسارٍ أو افتضاحٍ بسببِ كفرِ أبيه، وكذلك دعاءُ إبراهيمَ ﷺ بنفي الخزي عنه يوم القيامة هو دعاءُ جامعٌ بنفي أَيِّ ذُلٍّ وأَيِّ هوانٍ وقهرٍ، وأَيِّ بَعْدٍ وهلاكٍ وعذابٍ ومقتٍ من الله يمكن أن يلحقه يوم البعث.

دلالة المضارع في قوله: ﴿وَلَا تُخْزِي﴾:

أتى البيانُ القرآنيُّ بالفعل المضارع المسبوق بحرف (لا) الدُعائيَّةِ الجازمة⁽⁵⁾، في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْزِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾، وهو دعاءُ والتماسٌ من إبراهيمَ ﷺ بآلا يخزيه الله يوم البعث، وقد أفاد

دعاء إبراهيم
بنفي
الخزي عنه يوم
القيامة هو دعاء
جامعٌ

دعاء والتماسٌ
من إبراهيم
بآلا يخزيه الله
يوم البعث

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 517/24.

(2) ابن فارس، معاني اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (خزي).

(3) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خزي).

(4) الزمخشري، أساس البلاغة، وابن منظور، لسان العرب: (خزي).

(5) الهري، حقائق الرُّوح والريحان: 268/20.

التعبير بالمضارع الدعاء باستمرار انتفاء الخزي عنه في المستقبل، أي: يوم القيامة، وهذا يسلّزّم استمرار الكرامة له يومئذٍ.

نوع الإضافة ودلالاتها في قوله: ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾:

أضاف إبراهيم ﷺ إلى دعائه - بالأ - يخزيه الله - قيد ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْزِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾، وهي إضافة بيانية بينت أنّ دعاءه ﷺ بعدم الخزي مقيّد ومختصّ بيوم البعث لا الدنيا؛ إذ الدنيا مظهر اسم الستار⁽¹⁾، وفي هذا التقييد إشارة إلى مكانة الدار الآخرة عند إبراهيم ﷺ، فهي المقصود الأسمى، والنّجاة فيها هي النّجاة الحقّ، وأنّ الدنيا دار زوالٍ.

دعاء إبراهيم
بعدم الخزي
مقيّد ومختصّ
بيوم البعث،
فهو المقصود
الأسمى

سرّ التعبير بـ ﴿يُبْعَثُونَ﴾:

عبّر البيان القرآني بلفظ البعث في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْزِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾؛ لمناسبته للسياق والمقام؛ إذ البعث في معناه اللغوي الإثارة والاندفاع⁽²⁾، وبعث الموتى هو إخراجهم من قبورهم إلى يوم القيامة⁽³⁾، والبعث هو النشور⁽⁴⁾، فهذه المعاني للبعث مضافة إلى ﴿يَوْمَ﴾، ومجيئها بصيغة المضارع - الذي يصوّر حال خروج الناس من قبورهم مندفعين مجتمعين في إثارة وخوف إلى أرض النشور يوم القيامة - ناسب أنّ يدعو إبراهيم بانتفاء الخزي عنه في هذا الموقف المهيّب أمام الخلائق مجتمعة، فيكون له الفوز والكرامة والنّجاة فيه، وقد أتى الفعل بصيغة البناء لما لم يُسمّ فاعله ﴿يُبْعَثُونَ﴾؛ لتوجيه النّظر إلى الحدث العظيم، وهو بعث الخلائق يوم القيامة، ولأنّه معلوم للناس أنّ هذا الفعل - وهو بعث الناس - لا يملكه إلا هو سبحانه، ولا يصلح إلاّ له، ولا يكون إلاّ منه.

حدث عظيم
مهيّب يصوّر
خروج الناس
من قبورهم
مجتمعين يوم
القيامة

(1) الهري، حقائق الرّوح والريحان: 248 / 20.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بعث).

(3) الراغب، المفردات: (بعث).

(4) ابن منظور، لسان العرب: (بعث).

علة الإضمار في قوله: ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾:

العدول عن
مقتضى الظاهر
تهويل ليوم
البعث وتفضيع
له

في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ إضمارٌ، حيث لم يُذكرِ المبعوثون قبْلُ، وكان مقتضى الظاهر أن يُعبّرَ بالاسم؛ لأنّه لم يسبقْ له ذكرٌ، إلّا أنّه عدل عنه إلى ضميره؛ لما في عموم البعث من الشهرة الفاشية المغنية عن إظهار الاسم، ولأنّ البعث عامٌّ، فيدلُّ عليه، والتقدير: (ولا تخزني يوم يُبعث الناسُ كافّةً) ⁽¹⁾، أي: تكون علة الإضمار هي الإيجاز والاختصار، مع التهويل ليوم البعث والتفضيع له، وإذا كان الضمير يعود إلى الضالين في الآية التي قبلها، وهي قوله تعالى: ﴿وَأَعْفِرْ لَأَيِّ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾، بحيث يُجعلُ قوله: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ من جملة الاستغفار لأبيه، أي: ولا تخزني في يوم يُبعث الضالّون، وأبي فيهم ⁽²⁾، فتكون علة الإضمار كذلك الإيجاز والاختصار.

والراجحُ هو عود الضمير على العباد؛ لأنّ البعث عامٌّ فيهم جميعاً، ويدخل فيهم الضالّون، وهولُ ذلك اليوم يشملُ جميعَ الناس، ولذلك يقول أبو السعود: "إنّ تخصيصَ البعث بالضالين يخلُ بتهويل ذلك اليوم" ⁽³⁾.

علة تأخير دعاء إبراهيم بعدم الخزي:

خوف إبراهيم
من بقاء أبيه
على الكفر جعله
يدعو بعدم
الخزي بسبب
ذلك

دعاء إبراهيم ﷺ بعدم الخزي بعد دعائه بوراثه الجنّة - في قوله تعالى: ﴿وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ ... ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾، رغم أنّه متى حصلت له وراثته الجنّة؛ امتنع حصول الخزي - لأنّ الدعاء بوراثه الجنّة هو مقصودٌ أعظمٌ وأهمُّ ولذلك قدّم، أو لمناسبة مجيء دعائه بعدم الخزي بعد دعائه لأبيه ﴿وَأَعْفِرْ لَأَيِّ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾، فخوف إبراهيم ﷺ من عدم هداية أبيه جعله يدعو ألاّ يلحقه أيُّ انكسار أو افتضاح يوم القيامة بسبب كفر

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 517، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 250، والآلوسي، روح المعاني: 19/ 100.

(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 320، والنسفي، مدارك التنزيل: 2/ 569.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 251.

أبيه، ولأنَّ الخزي في أحدِ معانيه مأخوذٌ من الخَزَايَةِ، وهي الحياءُ من قُبْحِ فعلٍ له أو لغيره⁽¹⁾.

دلالة الموقع الإعرابي لقوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ﴾:

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ على القولِ بأنه من كلامِ إبراهيم عليه السلام، يَكُونُ بَدَلًا مِنْ ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾⁽²⁾؛ لأنَّ العاملَ في البَدَلِ هو العاملُ في المبدلِ منه، وقد جيءَ بالبَدَلِ؛ تأكيدًا للتَّهْوِيلِ، وتمهيدًا لما يَعْقُبُهُ مِنَ الاستِثْنَاءِ، وهو مِنْ أَعْمِ المفاعيلِ، أي: لا يَنْفَعُ مَالٌ، وإنَّ كانَ مصروفًا في الدُّنْيَا إلى وجوهِ البرِّ والخيراتِ، ولا بنونٍ وإنَّ كانوا صُلَحَاءَ مُسْتَأْهِلِينَ لِلشَّفَاعَةِ أَحَدًا ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾⁽³⁾، وكذلك قُصِدَ بالبَدَلِيَّةِ إظهارُ أَنَّ الالتِجَاءَ في ذلكَ اليَوْمِ إلى اللَّهِ وَحْدَهُ، ولا عَوْنٍ فيه بما اعتادَهُ النَّاسُ في الدُّنْيَا مِنْ أسبابِ الدَّفْعِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ، وللبَدَلِيَّةِ فَصْلَ قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ بتركِ العاطفِ؛ لكمالِ الاتِّصالِ.

وقيل: إِنَّ الآيَاتِ - الَّتِي أَوَّلُهَا ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ إلى قَوْلِهِ: ﴿فَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ - مُنْقَطِعَةً عَنْ كلامِ إبراهيم عليه السلام، وهي انتقَالٌ مِنَ البَيَانِ القرآني إلى وصفِ المعادِ، وهو اليَوْمُ الَّذِي وَقَفَ إبراهيمُ عِنْدَهُ في دُعَائِهِ أَلَّا يُخْزَى فيه، فيَكُونُ ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ﴾ استِثْنَاءً؛ خبرًا مُبْتَدَأً مَحْذُوفٍ، تَقْدِيرُهُ: (هو يَوْمٌ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ)⁽⁴⁾، وَيُظْهَرُ على هذا الوجهِ أَنَّ يَكُونُ المُرَادُ بِ﴿مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ الإِشَارَةُ إلى إبراهيم عليه السلام؛ لأنَّ اللَّهَ تعالى وَصَفَهُ بِمِثْلِ هذا في آيَةِ سورةِ (الصَّافَّاتِ)، في قَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾⁽⁵⁾ إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾. أي: شِيعَةِ نوحٍ.

يوم البعث يومٌ
مهولٌ لا ينفَعُ
فيه إلَّا الالتِجاءُ
لله وحده

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 517 / 24.

(2) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 997 / 2، والآلوسي، روح المعاني: 100 / 19.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 250 / 6.

(4) ومن المفسرين من أعربه بدلًا كابن عطية في الحرر الوجيز: 235 / 4، ولا يصح ذلك لاختلاف التكلمين.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 147 / 19.

معنى ﴿لَا﴾ في قوله: ﴿لَا يَنْفَعُ﴾:

المراد نفي
الانتفاع بالمال
والولد يوم
القيامة

﴿لَا﴾ في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ نافيةٌ مهملة، نفَتْ أي نفع للمال والولد يمكن أن ينتفع به أحد يوم القيامة إلا من أتى الله بقلب سليم، وقد أثر البيان القرآني النَّفْيَ بـ ﴿لَا﴾ دون (ما)؛ لأنَّ ﴿لَا﴾ تخلّص المضارع للمستقبل، بينما (ما) تخلّص المضارع للحال، والحديث في الآية عن يوم القيامة، وهذا يناسبه استعمالُ ﴿لَا﴾ دون (ما).

دلالة التعبير بـ ﴿لَا يَنْفَعُ﴾:

استمرار انتفاء
النفع بالمال
والولد يوم
القيامة تهويل
لذلك اليوم

عبر القرآن بلفظ النفع في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾؛ لتساع دلالة لفظ النفع وشموله، فالنفع: ضدُّ الضرر⁽¹⁾، والنفع: الخير، وهو ما يتوصّل به الإنسان إلى مطلوبه⁽²⁾، ففي نفي النفع عن الإنسان يوم القيامة بالمال والولد مبالغة في النفي لكل خير يطلبه، أو يقصد به التوصل إلى مطلوب يطلبه، والتعبير بصيغة المضارع المسبوق بالنفي، في قوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾؛ للدلالة على استمرار انتفاء النفع ودوامه بالمال والولد يوم القيامة، لمن كان في قلبه ذرّة من كفر أو نفاق، حسبما يقتضيه مقام التهويل والتفطيع⁽³⁾.

سرّ حذف المفعول في قوله: ﴿لَا يَنْفَعُ﴾:

عدم نفع المال
والولد يوم
البعث عام لكل
أحد

حُذِفَ مفعولُ يَنْفَعُ في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾؛ للعلم به، كأنه قيل: لا يَنْفَعُ مَالٌ ولا بنون أحدًا⁽⁴⁾، أو لقصد العموم، كحذفه في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس: 25]، أي: يدعو كل أحد، فتحصل أن التقدير: (يَوْمَ لَا يَنْفَعُ أَحَدًا شيءٌ يأتي به للدفع عن نفسه)⁽⁵⁾.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نفع).

(2) الفيومي، الصباح النبر: (نفع).

(3) الهرري، حقائق الرّوح والريحان: 283 / 20.

(4) الواحدي، التفسير البسيط: 75 / 17.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 149 / 19.

سِرُّ الاقتصارِ على ذكرِ المالِ والبنينِ:

الاقتصارُ على المالِ والبنينِ في نفيِ النَّافِعِينَ في قوله تعالى: ﴿لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾، جرى على غالبِ أحوالِ القبائلِ في دفاعِ أحدٍ عن نفسه، بأنَّ يُدافعَ إمَّا بِفِدْيَةٍ وإمَّا بِنَجْدَةٍ (وهي النَّصْرُ)، فالمالُ وسيلةُ الفديةِ، والبنونَ أَحَقُّ مَنْ يَنْصُرُونَ آبَاهُمْ، بل إِنَّهُمَا "عزُّ هذه الحياةِ الدُّنيا وزينتها، كما قال الله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ﴾ [الكهف: 46]، فالمالُ والبنون هما الزينة التي أُعِدَّتْ للفخر بها من أهل الدُّنيا"⁽¹⁾، وهذا يقتضي أَنَّ انتفاءَ نفعِ ما عدا المالَ والبنينَ مِنْ وسائلِ الدِّفاعِ حاصِلٌ بالأوَّلَى، بِحُكْمِ دَلَالَةِ الاقتصاءِ المُستندَةِ إلى العُرفِ، فالكلامُ مِنْ قَبِيلِ الاكتفاءِ⁽²⁾، فلا المالُ ولا البنون ولا الإخوة ولا الزوجة ولا الأقارب ولا السُّلطانَ الدنيويُّ ولا أيُّ شيءٍ يَنْفَعُ.

انتفاءُ النَّفعِ
بالمالِ والولدِ
انتفاءُ لما عداهما
بالأوَّلَى

معنى الواو في قوله: ﴿وَلَا بَنُونَ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَا بَنُونَ﴾ عاطفة، والمعطوف عليه قوله: (مال)، بجامع أنَّ كليهما، أي: المال والبنون لا يَنْفَعُ يوم القيامة.

سِرُّ تكرارِ (لا):

كَرَّرَ البيانُ القرآنيُّ (لا) في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾، فلم يقل: (يوم لا يَنْفَعُ مال وبنون)؛ لإفادة توكيد النفي عن كلِّ واحدة على حدة، أي: لا يَنْفَعُ مالٌ، ولا يَنْفَعُ بنون، وفي هذا التأكيد مزيدٌ تهويل ليوم القيامة.

تأكيدُ انتفاءِ
النَّفعِ من المالِ
والولدِ يوم
القيامة تهويلٌ
لذلك اليوم

نكتة تقديم ﴿مَالٍ﴾ على ﴿بَنُونَ﴾:

قُدِّمَ المالُ على البنين في قوله تعالى: ﴿مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾؛ لأنَّ الكلَّ يملكُ المالَ، ولو لم يكن إلَّا ملبسه، وليس لكلِّ واحد بنون، فقُدِّمَ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5371 / 10.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 148 / 19.

المال هو الأسبق
والأعّم في الملك
وفي الانتفاع

الأعّم على الأقل، ولأنّ الأبناء يأتون من الزّواج، والزّواج يحتاج إلى المال، فقدّم الأسبق، ولأنّ الأموال مظنة الحمل على الفساد أكثر، فلا تكاد تفارقها الفتنة، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ۖ﴾ (٦) **أَنْ رَّأَاهُ أَسْتَعْتَىٰ ۚ ﴿٧﴾** [العلق: 6-7]، وإنّ غرض عموم الناس في جمع الأموال أنّ يتركوها لأبنائهم من بعدهم⁽¹⁾، فقدّم الأنسب للسياق، وهو انتفاء النّفع، ويمكن أنّ يكون التّقديم لمراعاة الأفراد، فيكون قد قدّم الأنسب للمقام الذي يأتي فيه الإنسان وحيداً.

نكتة تنكير ﴿مَالٌ﴾ و﴿بَنُونَ﴾:

لا ينفع أيّ مال
وأني وليد في
الآخرة مهما بلغ

أفاد تنكير ﴿مَالٌ﴾ و﴿بَنُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ الكثرة وعموم نفي النّفع من كلّ مال وبنين، والمعنى: (لا ينفع مال من الأموال ولا ابن من البنين إلّا مال من هذا شأنه، وبنو من هذا شأنه، وهو من أتى الله بقلب سليم)⁽²⁾، وهذا العموم يشمل جميع أنواع الأموال وأصنافها، ويشمل جميع الأبناء من الذكور أو الإناث، أو من أبناء الذكور أو أبناء الإناث، مهما نزلوا، أو من الرضاع.

سرّ التعبير بصيغة الجمع ﴿بَنُونَ﴾:

مهما بلغ أبناء
الإنسان كثرة
لا ينفعونه في
الآخرة

جمع البيان القرآني لفظ الابن في قوله تعالى: ﴿مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾؛ ليشمل جميع الأبناء والبنات من الأبناء، وإنّ بعدت أنسابهم، وللدلالة على الكثرة، أي: مهما بلغ أبناء الإنسان كثرة لا ينفعونه في الآخرة كما كانوا ينفعونه في الدنيا، إلّا إذا أتى الله بقلب سليم.

نوع الاستثناء في الآية:

الكافر لا ينفعه
ماله وإن تصدّق
به، ولا بنوه
يغيثونه وإن
كانوا صلحاء

يصحّ أنّ يكون الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ متّصلاً، وفيه وجهان أحدهما أنّ يكون بدلاً من المحذوف أو استثناء منه، فهو في محلّ نصب على الوجهين، والتّقدير: (لا ينفع

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 324 / 9.

(2) القنوي وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 265 / 14.

مالٌ ولا بنون أحدًا إلّا من أتى...، ويجوز أيضًا أن يكون بدلًا من فاعل، فهو في محلِّ رفع⁽¹⁾، وبذلك يكون الاستثناء من عموم نفي النفع بالمال والبنين، أي: إلّا من كان ذا مال وبنين، وأعطى المال حقّه، وربّى البنين، وأحسن تربيتهم، فكانوا له عملاً صالحاً دائماً، أي: من أتى بقلب سليم فينفعه ماله الذي أنفقه في الخير، وولده الصالح بدعائه؛ لأنّه إذا مات ابن آدم؛ انقطع عمله إلّا من ثلاث: صدقة جارية، وعلم يُنتفع به، وولد صالح يدعو له، فمع المال والولد ينفع الإنسان إذا أتى الله بقلب سليم من كلّ المفاصد في الدُّنيا، ولما سبقَ هذا الاستثناء بنفي ﴿إِلَّا﴾ أفادَ الحصرَ في معنى الآية، فالمنتفع الحقيقيُّ واحدٌ هو من أتى الله بقلب سليم، وقد حصلَ من نسجِ الكلام على منوال الاستثناء المتّصل إيجازٌ بالحذف، مغنٍ عن ذكر كثير من الجمل⁽²⁾.

ويجوزُ أن يكون الاستثناء منقطعاً بمعنى (لكن)؛ لأنّ سلامة القلب ليست من جنسِ المال والبنين، ويكون المعنى: لا ينفع مالٌ ولا بنون، لكن من أتى الله بقلب سليم من مطاعمِ المال وخطرسه البنين، تنفعه سلامة قلبه⁽³⁾، أو لا يعتزُّ إلّا بالله، وقد سلمَ قلبه وكلُّ أحاسيسه له سبحانه⁽⁴⁾.

ومما يشيرُ إليه أسلوبُ الاستثناء هنا أنّ ممّا أكرمَ الله تعالى به خليفه، ونبّه على جلاله محلّه في الإخلاص أنّ حكى استثناءه هذا حكاية راضٍ بإصابته فيه في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، ثمّ جعله صفةً له في قوله: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ إذ جاء رَبَّهُ وَبِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ [الصافات: 83 - 84]⁽⁵⁾.

من أتى الله
بقلب سليم
تنفعه سلامة
قلبه

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5371 / 10.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 159 / 19.

(3) الرّمخشري، الكشف: 321 / 3، وأبو حيان، البحر المحیط: 26 / 7.

(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5371 / 10.

(5) الرّمخشري، الكشف: 321 / 3.

كل من أتى الله
بقلب سليم
يستحق النجاة
من الخزي

علة التعبير بالاسم الموصول ﴿مَنْ﴾:

عبر البيان القرآني بالاسم الموصول ﴿مَنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾؛ للإيماء إلى وجه استحقاق الإنسان للنجاة في يوم لا ينفع مال ولا بنون، وهو سلامة قلبه، وللدلالة على العموم، فكل من أتى الله بقلب سليم يستحق النجاة من الخزي، وفيه كذلك لفت للانتباه من خلال الإبهام؛ ليقع بعده التفصيل فيتمكن معناه من الذهن، وقد يكون المراد بـ ﴿مَنْ﴾ الإشارة إلى إبراهيم عليه السلام؛ لأن الله تعالى وصفه بمثل هذا في سورة الصافات في قوله: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ﴾ [الصافات: 83]، أي: شيعه نوح ﴿لِإِبْرَاهِيمَ﴾ [٨٣] إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ [الصافات: 83 - 84].

علة التعبير بمادة ﴿أَتَى﴾:

التعبير بفعل أتى دون جاء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾؛ للإشارة إلى أن طاعة الله وسلامة القلب من الشرك والأخلاق الذميمة أمر سهل التحقق لا صعوبة فيه ولا مشقة، وهذا ترغيب للسامعين بقصة إبراهيم ودعائه والقارئ لكلام الله تعالى؛ وللاشارة كذلك إلى أن دعوات إبراهيم عليه السلام بما حوته من معان كانت - لعلو إيمانه وثقته بفضل الله وعطائه - تتسأب منه بسهولة ويسر، وذلك لكون ﴿أَتَى﴾ لغة تستعمل في الأمور التي يتوصل إليها بسهولة، أو تكون في سياق تتسأب فيه المعاني بسهولة، بخلاف المجيء فإنه يأتي لما فيه صعوبة ومشقة، وحتى في نطق حروف الفعلين، فإن ﴿أَتَى﴾ أخف من (جاء)، كما أن ﴿أَتَى﴾ تستعمل في الأزمنة الثلاثة الماضي والحاضر والمستقبل، بخلاف (جاء) فإنها تأتي بالزمن الماضي فحسب⁽¹⁾، ومن ثم فإن استعمال لفظ ﴿أَتَى﴾ في الآية أنسب للمقام، وهو يوم القيامة الذي هو في المستقبل.

(1) الراجح، المفردات: (أتى)، والدوري، دقائق الفروق البيانية، ص: 229.

سلامة القلب
من الشرك
والأخلاق
الذميمة أمر
سهل التحقق

سُرُّ التَّعْبِيرِ بِالْمَاضِي فِي قَوْلِهِ: ﴿أَتَى اللَّهَ﴾:

عَبَّرَ الْبَيَانُ الْقُرْآنِيُّ بِلَفْظِ الْمَاضِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ مَعَ أَنَّ الْإِتْيَانَ فِي يَوْمِ الْبَعْثِ لَمْ يَقَعْ بَعْدَ، وَسَيَكُونُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ؛ وَذَلِكَ تَنْبِيهُ عَلَى تَحْقِيقِ وَقْعِهِ وَتَقَرُّرِهِ، حَتَّى كَأَنَّهُ قَدْ وَقَعَ؛ إِذِ الْقِيَامَةُ لَمَّا كَانَتْ وَاجِبَةً الْوُقُوعِ؛ جَعَلَ اللَّهُ مُسْتَقْبَلَهَا كَالْمَاضِي⁽¹⁾، بِمَا يَشِيرُ كَذَلِكَ إِلَى قُوَّةِ إِيمَانِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ وَيَقِينِهِ بِتَحَقُّقِ يَوْمِ الْبَعْثِ وَالْحِسَابِ، وَلَوْ عُبِّرَ بِصِيغَةِ الْمَضَارِعِ؛ لَمَّا كَانَ فِيهِ هَذِهِ الْمُبَالَغَةُ.

تَوْجِيهٌ لِّلْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ بَيْنَ آتَيْ الشُّعْرَاءِ وَالصَّافَاتِ:

فِي آيَةِ الشُّعْرَاءِ ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ عَبَّرَ الْبَيَانُ الْإِلَهِيُّ بِلَفْظِ أَتَى، وَفِي آيَةِ الصَّافَاتِ ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصَّافَاتِ: 84] عَبَّرَ بِلَفْظِ جَاءَ، فَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا بِكَلِمَةِ أَتَى وَجَاءَ، وَ﴿جَاءَ﴾ [الصَّافَاتِ: 84] تَعْنِي: الْمَجِيءَ بِمَشَقَّةٍ وَصُعُوبَةٍ، وَتَعْنِي: الْوُصُولَ، وَ﴿أَتَى﴾ تَعْنِي: الْقُدُومَ بِسَهُولَةٍ، وَأَنَّهُ لَمْ يَصِلْ إِلَى الْمَكَانِ الْمَرْجُوعِ بَعْدُ.

فَقَدْ عَبَّرَ بِ﴿أَتَى﴾ فِي آيَةِ الشُّعْرَاءِ، وَهِيَ فِي سِيَاقِ دَعَاءِ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ، وَقَدْ انْسَابَ الدَّعَاءُ عَلَى لِسَانِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ بِسَهُولَةٍ، وَكَذَلِكَ الْآيَةُ تَتَحَدَّثُ عَنِ الْمُسْتَقْبَلِ، فَهِيَ تَسْتَنِي مِنْ أَتَى بِقَلْبٍ سَلِيمٍ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ الَّذِي لَا يَنْفَعُ فِيهِ مَالٌ وَلَا بَنُونَ، وَهَذَا الْيَوْمَ لَمْ يَأْتِ بَعْدُ، فَانْسَبَ أَنْ يُعَبَّرَ بِ﴿أَتَى﴾؛ إِذْ تُسْتَعْمَلُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، فَلَا زَالَ فِي الْأَمْرِ مُتَّسِعٍ، بَيْنَمَا عَبَّرَ بِ﴿جَاءَ﴾ [الصَّافَاتِ: 84] فِي آيَةِ الصَّافَاتِ؛ لِأَنَّ الْآيَةَ إِخْبَارٌ عَنْ مَجِيءِ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ مِنَ الشَّرِّكَ وَغَيْرِهِ مِنَ الْآفَاتِ، وَمَخْلَصٍ لِلَّهِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَيْهِ، وَمُسْتَعِدٌّ لِبَذْلِ نَفْسِهِ وَكُلِّ شَيْءٍ يَمْلِكُهُ فِي سَبِيلِ رِضَا رَبِّهِ ﷻ، وَهُوَ أَمْرٌ لَيْسَ بِالسَّهْلِ، وَقَدْ تَحَقَّقَ هَذَا الْأَمْرُ مِنْ إِبْرَاهِيمَ ﷺ، فَانْسَبَ أَنْ يُعَبَّرَ بِلَفْظِ ﴿جَاءَ﴾ [الصَّافَاتِ: 84].

(1) الهري، حقائق الروح والريحان: 20 / 283.

لَمَّا كَانَ الْقُدُومُ
عَلَى اللَّهِ وَاجِبَ
الْوُقُوعِ؛ جَعَلَ
مُسْتَقْبَلَهُ
كَالْمَاضِي

مِنْ أُسْلُوبِ
الْقُرْآنِ وَبَلَغَتِهِ
مِرَاعَاةَ السِّيَاقِ
وَالْمَقَامِ فِي اخْتِيَارِ
مَا يَنْاسِبُهُ مِنْ
أَلْفَاظٍ

فائدة الالتفات في الآية:

لفت الانتباه
إلى أن الغيب
المتعلق بقيام
الساعة لا
يعلمه إلا الله

بدأ البيان القرآني في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْزِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ (٨٧) **يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ** (٨٨) **إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** بدعاء إبراهيم عليه السلام الله عز وجل لنفسه بقوله: ﴿وَلَا تُخْزِي﴾، ثم تحول النَّسَقُ من الخطاب إلى الغيبة بقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى﴾؛ لأنه أراد في سياق الحديث أن يقرّر قاعدةً عامّةً: أنه لا ينفع المرء يوم القيامة إلا إيمانه وسلامة قلبه، وكذلك أراد لفت الانتباه إلى أن الغيب المتعلق بقيام الساعة والبعث من القبور، ومحاسبة النَّاسِ، وعدم انتفاعهم إلا بإيمانهم وسلامة قلوبهم هو أمرٌ غيبي لا يعلمه إلا الله؛ لفتاً لانتباه المخاطبين وتحفيزاً لهم على الاهتمام.

سِرَّ حَمَلِ ﴿مَنْ﴾ عَلَى الْإِفْرَادِ فِي ﴿أَتَى﴾:

كلّ آتية يوم
القيامة فرداً
ومسؤول عن
سلامة قلبه

﴿مَنْ﴾ تحتمل معنى الإفراد بالنظر إلى لفظها، ومعنى الجمع بالنظر إلى معناها، وقد أثر البيان القرآني حملها على الأفراد في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾؛ لإرادة الجنس، ولكون الإتيان على الله يوم القيامة يكون فرادى، لقوله تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ (٩٥) [مريم: 95]، وكلُّ فردٍ يحاسبُ عن نفسه، وهو مسؤولٌ عن سلامة قلبه بذاته، وسيحمل وحده تبعه انحراجه عن طريق الحق، وسينظرُ الله إلى قلب كلِّ إنسانٍ على حدة، ومن ثمّ سلامة القلب تنفع صاحبها لا أحداً غيره.

عَلَّةُ التَّعْبِيرِ بِاسْمِ الْجَلَالَةِ ﴿اللَّهُ﴾:

الاسم الجليل
الجامع لكل
صفات الكمال
أنسب مع ذكر
القلوب

عبّر البيان الإلهي بالاسم الجليل في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، فلم يقل: (إلا من أتى ربّه)؛ لكون الاسم الجليل أنسب للمقام والسياق من لفظ الربوبية؛ إذ المقام هو يوم القيامة، وهو يومٌ عظيم مهيبٌ، يناسبه ذكر الاسم الجليل لتربية المهابة في القلوب، وهو الاسم الذي يجمع كلَّ صفات الكمال والقدرة والعظمة، المطّلع على القلوب وخفاياها.

الموقع الإعرابي لقوله: ﴿يَقْلِبِ سَلِيمٌ﴾:

الجارَّ والمجرور ﴿يَقْلِبِ سَلِيمٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ متعلقان بـ ﴿أَتَى﴾ أو بمحذوف حال، أي: مصحوبًا بقلب سليم⁽¹⁾، والمعنى: (لا ينفعُ مالٌ ولا بنون في يوم القيامة في حالٍ من الأحوال إلا حالٌ من أتى بقلب سليم، فإنه ينفعه ذلك).

علة التعبير بالقلب في قوله: ﴿يَقْلِبِ﴾:

عبر البيان القرآني بالقلب دون بقيّة الجوارح في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ من باب إضافة الكل إلى الجزء؛ لكونه رئيسه، فهو أشرف ما في الإنسان، ولأنّ الجوارح تابعة للقلب، فتسلم بسلامته، وتفسد بفساده⁽²⁾، إذ الفسادُ بالجوارح لا يكون إلا عن قصدٍ فاسدٍ بالقلب، فإن اجتمع مع ذلك جهلٌ؛ فقد عديم السّلامة من وجهين⁽³⁾، وفي الحديث عن رسول الله ﷺ: «ألا وإنّ في الجسدِ مُضْغَةً، إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، ألا وهي القلب»⁽⁴⁾.

سرّ وصف القلب بقوله: ﴿سَلِيمٌ﴾:

قيّد البيان القرآني القلب الذي ينفع صاحبه بصفة السّلامة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۚ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾؛ للدلالة على فضيلة القلب السّليم؛ لأنّه سبب لاستفادة الإنسان من ماله وبنيه، وهذا بناءٌ على أنّ الاستثناء متّصل⁽⁵⁾، وسلامة القلب تعني: خلوصه من الشكّ والشرك، ومن الكفر والنفاق، وهو المأثور عن ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن سيرين⁽⁶⁾،

لا ينفعُ مالٌ
ولا بنون يومَ
القيامة إلا حالٌ
من أتى بقلبٍ
سليم

الجوارحُ تابعةٌ
للقلب تسلمُ
بسلامته وتفسدُ
بفساده

القلبُ الصّحيحُ
الخالصُ من
الشّركِ والشكِّ
هو الذي ينفعُ
صاحبه

(1) درويش، معاني القرآن وبيانه: 7/ 89.

(2) الهري، حقائق الرّوح والريحان: 20/ 248.

(3) الجصاص، أحكام القرآن: 5/ 214.

(4) البخاري، الجامع الصحيح، كتاب: الإيمان، الحديث رقم: (52).

(5) ابن عثيمين، تفسير سورة الشعراء، ص: 159.

(6) الألوسي، روح المعاني: 19/ 101، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 19/ 319.

ولابن القيم في معنى القلب السليم كلامٌ قيّم، حيث يقول: "هو الذي سلّم من أن يكون لغير الله فيه شركةٌ بوجهٍ ما، بل قد خلصت عبوديته لله تعالى: إرادةً ومحبةً وتوكلًا وإنابةً وإخبارًا وخشيةً ورجاءً، وخلص عمله وأمره كله لله تعالى"⁽¹⁾، ولا يكون سليمًا إذا كان حقودًا حسودًا، مُعجبًا مُتَكبرًا، وقد شرط النبي ﷺ في الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، والله الموفق برحمته⁽²⁾.

بلاغة المجاز في إسناد السلامة إلى القلب:

السلامة من
الكفر وصف
لصاحبه محله
القلب

إسنادُ السلامة إلى القلب في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ مجازٌ عقليٌّ؛ لأنَّ السلامة من الكفر والشُّرك والنِّفاق وغيرها من الآفات وصفٌ لصاحبها، لكنَّ محله القلبُ كالإيمان، ولذا أسند السلامة إليه⁽³⁾.

دلالة صيغة فعيل في ﴿سَلِيمٍ﴾:

للبالغة في
سلامة القلب
حتى صارت
صفةً ثابتةً له

عبر النظمُ الحكيم عن صفة السلامة للقلب في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ بصيغة مبالغةٍ على وزنِ فعيل؛ لإفادة بلوغ الغاية في سلامة القلب، فالقلب السليم: هو القلب الذي قد صارت السلامة صفةً ثابتةً له، وأيضًا فإنَّه ضدُّ المريضِ والسَّقِيمِ والعليلِ، أي: جاءت على هذا المثل؛ لأنَّه للصفاتِ، كالطويلِ والقصيرِ والطَّرِيفِ⁽⁴⁾، وفي هذا كله حُسْنُ انتقاءِ اللفظ ودقَّةُ الوضع، ممَّا زاد المعنى قوَّةً، وجعل العبارةَ جزلةً خاليةً من المنافرة، ومختصرةً بما أضفى عليها إشراقًا ورونقًا.

دلالة التَّنكير في قوله: ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾:

قلب سليم من
أني مرض يغيِّره
عن الفطرة التي
فطره الله عليها

نكَّرَ البيانُ الإلهي لفظي ﴿بِقَلْبٍ﴾ و﴿سَلِيمٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا

(1) ابن القيم، التفسير القيم، ص: 394.

(2) ابن العربي، أحكام القرآن: 3/ 459.

(3) القنوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 14/ 264.

(4) ابن القيم، إغائة اللفهان: 7/ 1.

مَنْ أَنَّى اللَّهُ يَقْلِبُ سَلِيمٍ؛ لإفادة التعظيم والتفخيم والتشريف لهذا القلب، ولصفة السلامة فيه، والتي بلغت الغاية من السلامة، فهو قلب سليم من أي مرض يغيّره عن الفطرة التي فطره الله عليها، وهي الإسلام الذي رأسه التوحيد، والاستقامة على فعل الخير، وحفظ طريق السنة⁽¹⁾.

❖ الفروق المَعْجَمِيَّة:

الخزي والخذلان:

الخَزِيُّ هو ذلٌّ مع افتضاح⁽²⁾، وهو العيبُ التي تظهرُ فضيحتَه، ويلزمُ الاستحياء منه⁽³⁾، وقيل: أصله الإبعادُ، فقولهم: أخزاه الله، أي: أبعدَهُ ومَقَّتَهُ، وقولهم خزي الرجلُ: اسْتَحْيَا مِنْ قُبْحِ فِعْلِهِ خَزَايَةً، فهو خَزِيَانٌ، وذلك أَنَّهُ إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ، وَاسْتَحْيَا؛ تَبَاعَدَ وَنَأَى⁽⁴⁾، وقيل: أصله من قولهم: خزي الرجلُ: لحقه انكسارٌ إمّا من نفسه أو من غيره⁽⁵⁾، ومن معاني الخَزِي أيضًا: السَّوْءُ، والهوانُ، والفضيحةُ، والقهرُ، وقد يكون بمعنى الهلاكِ والوقوعِ في بَلِيَّةٍ⁽⁶⁾، وأمّا الخذلانُ؛ فهو تركُ النَّصْرِ مِمَّنْ يُتَوَقَّعُ منه ذلك⁽⁷⁾؛ إِذْ أَصْلُهُ يَدُلُّ عَلَى تَرْكِ الشَّيْءِ وَالْقُعُودِ عَنْهُ، فَالْخِذْلَانُ: تَرْكُ الْمَعُونَةِ وَالنُّصْرَةِ، وَخِذْلَانُ اللَّهِ لِلْعَبْدِ: أَلَّا يَعِصِمَهُ مِنَ السَّوْءِ وَالشُّبْهِ فَيَقَعَ فِيهِمَا، وَالْخَاذِلُ ضِدُّ النَّاصِرِ⁽⁸⁾، ولهذا ناسب استعمال لفظِ الخزي لا الخذلان؛ إِذْ دَعَاءُ إِبْرَاهِيمَ ﷺ بَعْدَ خَزْيِ الْخَزْيِ يَقْصِدُ مِنْهُ أَلَّا يَلْحَقَهُ أَيُّ انْكَسَارٍ أَوْ

الْخِزْيُ ذُلٌّ
وَانْكَسَارٌ وَحِيَاءٌ
مِنِ الْإِفْتِضَاحِ،
وَالْخِذْلَانُ تَرْكُ
الْمَعُونَةِ وَالنُّصْرَةِ
مِمَّنْ يُتَوَقَّعُ مِنْهُ
ذَلِكَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 57/14.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 250.

(3) العسكري، الوجوه والتطائر، ص: 201.

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (خزي).

(5) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خزي).

(6) ابن منظور، لسان العرب: (خزي).

(7) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خذل).

(8) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (خذل).

افتضح بسبب كُفر أبيه، ولا يصح استعمال لفظ الخذلان؛ إذ الله سبحانه لا يمكن أن يخذل رسله، أو أن يترك نصرتهم.

الإتيان والمجيء:

الإتيان مجيء
بسهولة، ويقال
لما لم يحصل
بعد، فهو أنسب
مع الإتيان على
الله بقلب سليم

الإتيان هو مجيء بسهولة، ومنه قيل للسيل المار على وجهه: أَتَى وَأَتَاوَيْ⁽¹⁾، فالإتيان لما فيه يسر، ويُعبر به عن سهولة الفعل وسرعته، وأمّا المجيء؛ فيستعمل فيما ثقل وعظم شأنه، ولما فيه صعوبة ومشقة، والمجيء أعم من الإتيان؛ لأنّ الإتيان قد يُقال باعتبار القصد، وإن لم يكن منه الحصول، والمجيء يُقال اعتباراً بالحصول⁽²⁾، أي: المجيء هو تمام الإتيان، فإنّ الإتيان إذا اكتمل، وبلغ مقصده من مكان أو زمان أو شخص؛ أصبح مجيئاً، والإتيان يُقال للمجيء بالذات وبالأمر وبالتدبير، ويُقال في الخير وفي الشر، وفي الأعيان والأعراض⁽³⁾، والمجيء يُقال في الأعيان والمعاني، ولما يكون مجيئه بذاته وبأمره، ولمن قصد مكاناً أو عملاً أو زماناً⁽⁴⁾، ومن هنا ناسب التعبير بالإتيان دون المجيء؛ إذ الإتيان على الله بقلب سليم لم يحصل بعد.

القلب والفؤاد:

القلب خالص
الشيء
وشريفه وهو
محل الأفكار
والمعتقدات

القلب من (قلب)، وأصله يدل على ردّ شيء من جهة إلى جهة، ويدل على خالص الشيء وشريفه (باطن الشيء ولُبه)⁽⁵⁾، ومنه قلب الإنسان، وهو الجارحة والمضغة المعروفة التي في الصدر، فهي أشرف ما في الإنسان وأخلصه⁽⁶⁾، وسُمّي بذلك لكثرة قلبه⁽⁷⁾، ويعبر

(1) الرّاغب، المفردات: (أتى).

(2) الرّاغب، المفردات: (جاء).

(3) الرّاغب، المفردات: (أتى).

(4) الرّاغب، المفردات: (جاء).

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قلب).

(6) الرّبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قلب).

(7) الأزهري، تهذيب اللغة: (القلب).

بالقلب عن العقل، وعن المعاني التي تختصُّ به من الرُّوح والعلم والشَّجاعة وغير ذلك⁽¹⁾، وأما الفؤادُ؛ فَمِنْ (فَأَدَ)، وأصله يدلُّ على حُمَّى وشِدَّةٍ حراريَّةٍ، وسُمِّيَ بذلك لحرارته⁽²⁾، والفؤادُ يُقالُ له: فُؤَادٌ؛ إذا اعتَبَرَ فيه معنى التَّفَوُّدِ، أي: التَّوَقُّد⁽³⁾، وقيل: أصله من الحركة والتَّحريك، ومنه اشتقَّ الفُؤَادُ؛ لأنَّه ينبضُ، ويتحرَّك كثيرًا⁽⁴⁾، وقيل: الفؤادُ: هو وعاء القلب، وقيل: داخله، وقيل: غشاؤه، والقلبُ: حَبَّتُه⁽⁵⁾، والقلبُ أَخَصُّ من الفؤادِ لحديث: «أتاكم أهل اليمن هم أرقُّ قلوبًا وألين أفئدة»⁽⁶⁾، فوصفَ القلوبَ بالرفَّة والأفئدة باللين⁽⁷⁾، وقد ناسبَ هنا التَّعبيرُ بالقلب دون الفؤاد؛ لأنَّ الحديث عن سلامة القلب من الشُّرك والنِّفاق والآفات التي محلُّها القلبُ الذي هو محلُّ المعاني والأفكار والمعتقدات، وليس الكلام عن التَّوَقُّد وحرارة القلب.

(1) الرَّاغِب، المفردات: (قلب)، والفيروزآبادي، بصائر ذوي التَّمييز: 289 / 4.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فَأَدَ).

(3) الرَّاغِب، المفردات: (فَأَدَ).

(4) الزَّيْدي، تاج العروس: (فَأَدَ).

(5) الزَّيْدي، تاج العروس: (فَأَدَ).

(6) البخاري، الجامع الصحيح، كتاب المغازي، رقم: (4388).

(7) الأزهري، تهذيب اللغة: (القلب)، والفيروزآبادي، بصائر ذوي التَّمييز: 289 / 4.

عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن والثلاثون،
سورة الفرقان من الآية 43 إلى سورة الشعراء الآية 95
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

سنة الطبع: 1446 هـ - 2024 م

© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي

الطبعة الأولى: 2024 م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:

مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن والثلاثون، سورة الفرقان من الآية 43 إلى سورة الشعراء الآية 95
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغامي].-

الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: منشورات القاسمي، 2024.

مج. 38، 808 صفحة؛ 24x17 سم.

ردمك: 978-9948-732-80-8

يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.

مج. 38: المجلد الثامن والثلاثون، سورة الفرقان من الآية 43 إلى سورة الشعراء الآية 95.

1- القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-

ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).

قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي: 978-9948-732-80-8

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-5248773 بتاريخ 2024/11/26 م،

مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية: E

«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري

الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE

الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»